شـــلر

للكاتب الكبير توماس كارليل

ترجمة الأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

— ٣ —

وطبيعة الكتاب وما أيقظه من رغبة جامحة لفتت الأنظار إلى الأحوال الخصوصية للمؤلف ، ولم تكن هذه المأساة وحدها هي التي جلبت الانتباه ؛ بل إن جميع ما كتبه ووجد له سبيلا إلى النشر والذيوع من الكراسات الدورية الأخرى أوضحت بجلاء بأن هذا الإنسان لم يكن شخصا عاديا . وقد أغاظت العواطف الحادة التي أبدتها مأساة (اللصوص) كثيراً من الأشخاص الرصينين ، وقد كان لقابلياته التي لا تجارى وإكثاره في التعبير عن مكنونات نفسه أثرها في تعكير القضية أكثر فأكثر . وأما ما يخص رؤساء شلر فلم تكن تهمهم مثل هذه الأشياء ولم يفهموا منها شيئا يذكر ، وقد يكون شلر عبقريا ولكنه كان خادما خطرا لصاحب السمو دوق (فرتمبرك) . ولم يقتصر الأمر على الناس الفضوليين في القضية ؛ بل إن ذلك قد تعدى حتى إلى الرعاة في جبال الألب . وقد أصبح قضاة (كرسنز) [1] بعد قراءتهم لهذا الكتاب يشعرون بماله من تأثير سيء في الناس ، مما حدا بهم أن يشكو من ذلك في جريدة (هاسبورغ كورسبوندنت) ، ثم أعقبوا ذلك برفع القضية أمام الدوق العظيم » . « ولما اطلع الدوق على هذه الوضعية ساءه ذلك وعبر عن عدم استحسانه عن أعمال شلر بعبارات صريحة نابية جافة . وأخيراً قدم شلر أمامه ، فما كان من صاحب السمو إلا أن شرح له سخطه على أخطائه الأخلاقية والسياسية كما استهان بقيمة مؤلفه الأدبية . ولكن رأى الدوق لم يلق رضاً من شلر ، وقد انتهت المواجهة بدون جدوى بسبب إصرار الطرفين على رأيهما ، وبعد ذلك أمر الدوق بأن ينصرف شلر إلى دراسته الطبية ، أو على الأقل ألا ينظم شيئا من الشعر وينشره بدون الحصول على موافقته . ولم يقتصر الأمر على هذا فقط؛ بل إن كثيراً من التقريع كان في انتظاره . فكل جهوده في أداء واجبه على أحسن وجه كانت تفسر تفسيراً خاصا

وكان يعاقب على أبسط هناته أقسى العقاب . لقد انكمشت روحه ، لما أصابها من إنهاك وتزييف في النضال المرير ضد العوائق المثيرة المتمثلة في الاضطهاد اللانهائي من أناس لم يعرفوا عنه شيئاً ، ولكن سوء الطالع وضع مصيره بأيديهم القذرة . وقد طافت في ذهنه فكرة السجون والسجانين فمذبته تعذيباً مرا ، كما أنه فكر كثيراً في الوسائل التي يتذرع بها للتخلص من عذاب السجن الذي كان ينتظره في كل يوم ، فأراد نبذ الشعر الذي كان له بمثابة ينبوع السرور ومصدر الهموم في الوقت ذاته ، واعتزاله هذا — لو قدر له أن يقع — لاعتبر حكما بالإعدام على كل شيء سام ومفرح في نفسه وعلى القيم التي كان يعتز بها أشد الاعتزاز [2] »

وقد دفع الشعور الطبيعي المؤلف اليافع على الجسارة للذهاب سرا لمشاهدة تمثيل مأساته في مانهايم . ولم يستره هذا التنكر، فقد ألقى القبض عليه بعد أسبوع من ذلك بسبب إساءته هذه، ولم يمنعه العقاب الذي أنزل به من الاجتراء مرة أخرى وبالأسلوب عينه . وقد علم أن هناك خططا جديدة توضع ضده ، وقد ألح له بعضهم ببعض الوسائل الشديدة التي تنتظره إن هو أصر على غيه ولم يفق من غفوته

ولم يفد في ذلك الموقف العون الذي قدمه له (البرغ) الذي كان أمله الوحيد في التخلص من هذه المضايقات . فرأى شلر نفسه محاطاً بالمصائب المختلفة والشرور المرعبة من كل جهة ، وقد أثار ذلك غضبه أشد الإثارة ولكنه اضطر إلى السكوت وارتداء قناع الصبر ، وأخيراً لم يطق احتمال هذا الضغط الجنوني أكثر مما تحمله . لقد قرر أن يكون حرا مهما بلغ الثمن ، وقرر كذلك أن ينبذ كل الفوائد المتأتية من جراء السكوت ، فترك البيت الذي كان يعيش فيه ، وهو بيت مربيته وخرج فريداً لا يلوي على شيء باحثاً عن عمل في سوق الحياة الكبيرة

استغل شلر وصول أحد الأمراء والدوقات إلى مدينة ستتارد

(١) اسم مكان في ألمانيا

(٢) حياة شلر

والضجة التي أثيرت في الترحاب به والحفاوة التي أسبغت على المدينة حلة من الزينة ، وهكذا تمكن من التخلص وسط هذا الزحام من مراقبة العيون والأرصاد لانشغالهم بهذا الاستقبال ، ففر من المدينة في أكتوبر سنة ١٧٨٢ وكان عمره آنئذ ثلاثاً وعشرين سنة [٢] . وفي مثل هذه الظروف شب شلر عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال من القوة والبأس

وقد أثرت هذه العقبات والنكسات في سلوكه ولكن قوته الخاصة تمكنت من الغلبة في النهاية ... أما طفولته فقد كانت هانئة هادئة ، كما سبق أن ذكرنا ذلك في حينه ، لأن والديه أسبغا عليه جوا من المحبة والحنان ، فجعلاه يشعر بالانشراح والسرور وبالسعادة الحق

لقد قدر لهذه البذرة غير المرئية أن تنبت يوماً ما وأن تصبح شجرة التقى والفضيلة الرقيقة ، ومن حسن حظه أن الهجوم العنيف الذي شن عليه لم يقع إلا بعد أن أكمل عدته لمواجهته بعد أن أجمع قوته . ويعود الفضل الأكبر في فوزه النهائي في هذا النضال الهائل إلى أساتذة مدرسة ستغادر ودوقهم الأعمى . ومع ذلك لو كان النظام الذي اتبعوه أكثر مدنية وأقل تعصباً لما خسرنا شاعرنا أيضا ، لأن بركان شعره كان كامنا في أعماق نفسه ولا يمكن أن يبقى مثل هذا البركان صامتا طويلا ، بل إن انفجاره كان محتما في كل يوم لا بل في كل ساعة . وقد أثرت هذه المعاملة الخشنة في سلوك شلر فأججت حساسيته وزادت من رقته وإرهافه ، وخصوصاً إذا عرفنا مدى اتصال ذلك كله بطبيعته ذات الفعالية الذاتية ، ولو كانت لديه ميول أقل تأججاً وأبرد محبة ، لرأينا في الوقت المناسب كيف ينتهي كل هذا إلى عزلة خانقة ووحشية ، ولحتى إلى مقت شديد للانسانية . وإذا نظرنا نظرة عامة إلى شلر في مثل هذه الرحلة لظن بعض المتتبعين القصيري البصر أن شلر ضعيف لأن مثل هؤلاء المتتبعين يخلطون بين الرقة والضعف على اعتبارهما شيئا واحدا . فعنصر القوة الذي يتمتع به وهو أصل كل تقدم يجعله يتصرف على رغائب نفسه ، لقد كان له قصد وغاية فيما يعمل ، وكان يحب الجمال الروحي بكل جوارحه وبكل نفسيته ، وهو مستعد في سبيل الوصول لمثل هذا الهدف إلى تقديم التضحيات . لقد ظهر هذا الهدف كغريزة جامحة ، وتحت أشكال غامضة ، وقد ازدادت قوة على قوة كما اتسمت بالوضوح في النضال والمقاومة فيما يجب الانتصار فيه .. إن لهذه النكسة في حياة شلر أهميتها في التأريخ الأدبي : وهذ التعذيب في سبيل الضمير ، وهذا ما وقع للهراطقة والزنادقة في الدين أكثر مما وقع للهراطقة في الأدب . هذا النضال الأعمى الذي قصد إلى إخماد النور السماوي في الروح الإنسانية ، وقد انتهى هذا النضال إلى البوار والفشل كما انتهى إلى ذلك في الأدب أيضا

وما من شك أن ما فعله حكام محكمة التفتيش من أعمال مرعبة وجرائم نكراء لم يكن وحيداً في بابه وفريداً في نوعه .. لأن حكام محكمة التفتيش الأدبية قد خلفوا السابقين ، ومع ذلك فلم ينته أمرهم إلا كما انتهى أمر أسلافهم .. لأن تأثيرهم كان مؤقتا وعرضيا ولم يؤد إلى أية نتيجة تذكر

وما كنا لنطيل النظر في هذه الإجراءات إلا لأن ذلك سيقودنا إلى أزمة شلر الكبرى ولأنها تظهر لنا لأول مرة إرادته وهي تؤكد نفسها ، وتبين بصراحة القانون الذي سيسيطر على مستقبل حياته ، وقد قال هو نفسه في خصوص ذلك (لقد عشت فقيراً معدماً ويائساً) ومع ذلك فذهنه ظل في مكانه محافظاً على مواهبه كما أن موجوديته الحية ظلت صامدة كالطود الأشم ، ومن هنا يجب اعتباره أدبياً وهو سيبقى كذلك في سجيته وسلوكه وقد قال بهذه المناسبة: « لقد انحلت جميع اتصالاتي السياسية ، وأصبح الرأي العام كله لي ، إنه دراستي ، إنه سيدي ، إنه موئلي ، وإلى الرأي العام فقط تعود حياتي ولن أقف أمام أية محكمة أخرى ، وهذه المحكمة بالذات هي التي أعتبرها وأخشاها . يطوف أمامي الآن خيال من الخيال كلما قررت أن أصفد نفسي بقيود غير حكم العالم ، ولن أستأنف حكمي إلا أمام محكمة روح الإنسان » [٤]

(٣) حياة شلر ٣٢ ، ٣٩

(٤) مقدمة ثانية

وسنجد فى حياته اللاحقة وحدة نبيلة متماسكة بما فى ذلك من اختلافات خارجية ، كما أن الهيام بالأدب والمزعة التى تهزأ بالمخاطر لازمتاه طويلا ولم تتركاه وحيداً فى نضاله الشريف . فنراه متجولا فى العالم ناظراً إليه فى مختلف الصور والأشكال والألوان ، ونراه كذلك ممتزجا بمسرات الحياة الاجتماعية فيصبح زوجاً وأبا ويجرب مصائر الناس ، ولكن الكوكب الساطع الهادى كان قائده الذى أرشده فى متاهات شبابه وظل نور هذا الكوكب ساطعاً مدى حياته . وكان شلر فى كل العلاقات والأحوال نقيا طاهراً لطيفاً حتى أنه كان قليلا ما يخطئ

لقد كان هدفه الأعلى بعد الكمال الروحى هو الهيام بالشعر ، وهذه العاطفة كانت من القوة والشدة بحيث أصبحت نقية طاهرة وعالية سامية، وكانت مصدر سلوكه الحسن وينبوع شعوره النبيل الفياض . وهذه العاطفة يجب أن تكون لدى الجميع نقية وسامية لأنها — فى أى مظهر كان — هى وحدها هدف الإنسان الحق ، وهى موهوبة لدى كل إنسان ، لأنها لا يمكن أن تطمس كلية ، ولكنها تبقى سلبية عند كثير من الناس ، أما البقية من الناس والذين تبلغ فيهم العاطفة هذه مبلغاً كبيراً من الفعالية فسيكونون شعراء قولا أو عملا ، وقلما تكون الأهداف السامية بعيدة عن المطامح المبتذلة والأهداف الأرضية التى تشوه هذه المظاهر كلية . فعند شلر إذن كانت هى الهدف الأساسى الذى تتجمع حوله جميع الأهداف الثانوية الأخرى ، ولم تكن الشهرة نفسها والتميز العالى ليمنيه فى قليل أو كثير ، فسلوكه اللطيف المخلص هو الذى كان يجذب إليه الأصدقاء ، وقد كانت حياته المستقيمة السالمة مدعاة احترام الجميع ، والذين عرفوه خير المعرفة أحبوه أشد الحب

علاقته بجوته

ولعل أهم ظرف أحاط بحياته الأدبية هى علاقته بجوته.. ولو استعملنا تعبيرنا السابق لقلنا : لو فرضنا أن شلر كان قمرا لكان جوته مطرانا ، وهذا الأخير هو الذى رسمه للكهنوت ومنه حصل على النور القدسى . لقد كانت علاقتهما حدثاً قل نظيره فى تاريخ الأدب للأسف الشديد ، وكانت علاقتها علاقة خالصة من كل زغل وبعيدة عن كل أنانية كما كانت الحالة بين (سوفت) و (بوب) (٥) اللذين كانا يتقاسمان الثراء والضراء وتجمعهما رابطة الكبرياء . وقلما يتفق الناس بمثل هذه الأحوال ولأغراض من هذا النوع إذا وزنت فى الميزان الاقتصادى كما ساوت وزن خيوط العنكبوت (٦) . ويظهر أن بعض العقبات الدولية وقفت فى الطريق كما أن بعض التحامل من قبل الطرفين وقع وكان الواجب يقضى بالتغلب عليه . ولعدد من السنين لم يكن فى الإمكان تقابلهما إما لسبب عرضى أو جوهرى ، وكانت مقابلتهما الأولى غير مشجعة . يقول شلر فى هذه المناسبة : (إن هذا الاجتماع لم يقلل من الفكرة العظيمة التى استحوذت على والتى كنت قد كونتها مقدماً عن جوته . ولكننى أشك فيما إذا كنا سنتصل فى المستقبل مع بعضنا البعض الآخر اتصالا وثيقاً . فكثير من الأشياء التى تهمنى لم يعد لها أى ذكر لديه ، وطبيعته فى جملتها وتكوينها فى الأصل تختلف عن طبيعتى . كما أن عالمه ليس عالمى . ويظهر أن أساليب فهمنا للأشياء تختلف اختلافاً بيناً . وطبيعى أن اتحاداً من هذا النوع لا يمكن أن ينتج ألفة وثيقة ثابتة) ومع ذلك فبالرغم من بعض التحامل الخطير من قبل جوته ، إن لم نقل شيئاً من الحسد الوضيع الذى كان من الممكن سيطرته على أى شخص آخر فى مثل هذه الظروف نفسها ، نقول بالرغم من هذا كله فإن الذى لم يكن محتملا وقع ، وكانت النتيجة أن توثقت الصداقة بينهما واشتدت الألفة ولم يفرق بينهما غير الموت . وإذا نحن اعتبرنا الوضعية النسبية لكل من الطرفين وسلوكهما فى هذه القضية فعلينا أن نعترف أن كلا منهما كانت لا تعوزه الفضيلة الاجتماعية كما أن حب الإيثار كان مستحوذاً عليهما . والحال مع جوته خصوصاً بينة وواضحة، فهو كان أكبر سنا وأعظم الاثنين..فهو لم ينتظر شيئاً بالمقارنة لما يعطى . أما هذه الوحدة الأخوية فيمنعنا ضيق المجال من شرح طبيعتها وبيان تطورها ، وهى ستعطينا دليلا آخر تأييداً لما قاله (يونغ ستيلنغ) (بأن قلب هذا الإنسان الذى يعرفه القليلون هو نبيل وصادق كعبقريته التى يعرفها الجميع)

(٥) الأول أديب إنجليزى كبير معروف بكتابه (رحلات كوليفر) والثانى شاعر إنجليزى مشهور بشعره

(٦) مثل انكليزى معروف

الكلام صلة

يوسف عبد المسيح ثروت